

حُجُبٌ وخنَاجِرُ:
قرن من تقديم مجلة "ناشيونال
جيوغرافيك" للعالم العربي*

**Veils and Daggers: A Century of National
Geographic's Representation of the Arab World**

Linda Steet

Philadelphia: Temple University Press, 2000. 194 pages.
\$59.50 cloth; \$21.95 paper

في هذا الكتاب السجالي المفعم بالحيوية تلوم ليندا ستيت مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" على قرن من سوء تقديم المستشرقين للعالم العربي. أنشئت "ناشيونال جيوغرافيك" سنة 1888، وهي وسيلة مهمة للثقافة الشعبية، وتتمتع حالياً بثالث أعلى نسبة توزيع بين المجلات في الولايات المتحدة. تتفحص ستيت المقالات الموضحة بالصور عن العالم العربي والتي نشرت بين سنة 1888 وسنة 1989، وتختار للبحث نحو خمس وسبعين مقالة واثنين وثلاثين صورة "موجودة ضمن الخطاب الاستشراقي" (ص 10). وتقسم المواد التي بين يديها بترتيب زمني إلى أربعة فصول، وتقدم لكل فصل بمراجعة موجزة للأحداث المتعلقة بالولايات المتحدة والعالم العربي، يليها تحليل للمقالات. وتقدم ستيت أمثلة متعددة للتحيز العنصري والاستعماري والجنسي، فضلاً عن الإحالات المتكررة على المؤلفين المناهضين للاستعمار والمنادين بالمساواة بين الرجل والمرأة، مثل مالك علولة (Malek Alloula) وهومي بابا (Homi Bhabha) وإدوارد سعيد (Edward Said) وغاياتري سبيفاك (Gayatri Spivak) وغيرهم. وتختتم بأن خطاب مجلة "ناشيونال جيوغرافيك"، خلال قرن من الزمن، "يظهر القليل من التغيير فيما يتعلق بتقديم العالم العربي" (ص 154).

* مترجم عن الإنكليزية من:

Journal of Palestine Studies, vol. XXXI, no. 1, Autumn 2001, pp. 97-98.

تشكل الصور الفوتوغرافية جزءاً مهماً من حجتها لأن مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" تضم ثلاث صفحات من الصور في مقابل كل صفحة من النص (ص 29). ويُعتبر تحليل ستيت لصور فوتوغرافية منتقاة من المجلة نقطة قوة للكتاب. ففي صور فوتوغرافية شبيهة ببطاقات البريد الفرنسية لنساء عربيات في سنة 1914، تتمكّن من تمييز قطع الحلي نفسها على عدة نساء مختلفات، الأمر الذي يوضح أن المصور استخدم الإكسسوارات (ص 39-40). وفي صورة فوتوغرافية لـ "حجاج متوجهين إلى مكة" تعود إلى سنة 1924، تلفت المؤلفة الانتباه إلى يد مطموسة تفتح عباءة إحدى الحاجات وتكشف عن ثديها (ص 7). وتتمتع ستيت ببصر حاد بكشف التركيب: ففي صورة فوتوغرافية على مسبح تونسي من مقالة تعود إلى سنة 1980 "لا يُكشف ثديا [سائحة أوروبية] لمشاهدي الصورة، لكن يراقبها عامل عربي يسير أمام المرأة، وهو ما يوحي بـ "الشبق العربي" (ص 146-147).

يقترح كتاب "حُبّ وخناجر" علينا أن "نتعامل مع مجلة 'ناشيونال جيوغرافيك' بشكل نافذ، وأن نتحدى افتراضاتها"، فنقرأ ونعلّم ضد الميول الفطرية من أجل نقد متعدد الثقافات (ص 155). وتقر ستيت بالتصوير الفوتوغرافي الممتاز للمجلة "وقدرتها الفريدة التي لا تقاوم على التصوير الفني"، موضحة ذلك بطرفة ختامية عن الإثارة والإفتتان اللذين شعرت بهما هي وابنها الصغير عند مشاهدة صور "ناشيونال جيوغرافيك" للمريخ ولحطام سفينة تايانيك (ص 156).

يستطيع المرء أن يجد في مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" الاستشراق الذي توثّقه ستيت، لكن المرء يجد أيضاً أجزاء من مقالات وصور فوتوغرافية تقدم العالم العربي بصورة إيجابية. مثال ذلك، تحت عنوان "لوحة خالدة"، تنتقد ستيت مقالة في شباط/ فبراير 1982 بسبب صورة لامرأة مصرية توجد ذبابتان على وجهها، مع تعليق يلفت الانتباه إلى الذباب. غير أن نص المقالة كان في الواقع قطعة حساسة ومتعاطفة عن المصريين في الصحراء - وهي واحدة من ثلاث مقالات في "ناشيونال جيوغرافيك" كتبها في الثمانينات الجيولوجي البارز في وكالة الفضاء الأميركية والمصري المولد، فاروق الباز، لا تركّز على خلود مصر وإنما على التغيير. والصورة التي تنتقدها ستيت لا تمثّل المقالة، وهو أمر غير مفاجئ نظراً إلى أن الكتاب في مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" لا يلتقطون الصور الفوتوغرافية التي توضح مقالاتهم، أو يعلّقون عليها.

المقالات "الجيدة" عن العالم العربي قليلة، ووجودها لا يناقض حجة ستيت، لأنها ذكرت أنها "غير مهتمة بإمكان إيجاد جملة أو صفحة أو مقالة أو صورة يمكن أن توفّر مثلاً لتقديم المجلة العرب خارج الاستشراق". إنها أميركية - عربية من دعاة المساواة بين الجنسين، مشروعها الصريح إيجاد الاستشراق وإيضاحه. وإن كان هناك أيضاً تقديم "جيد" للعالم العربي في مجلة "ناشيونال جيوغرافيك"، ترى أن ذلك لا يهم لأن "التقديمات لا يلغي بعضها بعضاً كما في

المعادلات الرياضية. "بعبارة أخرى: "الجملة العنصرية لا يوازنها العثور على جملة غير عنصرية" (ص 10).

مع ذلك، كنت أرحب ببحث كيف يمكن لأحدهم تنفيذ مشروع يصور بنزاهة شعب ثقافة أخرى؛ وهو مشروع يبدو أن ستيت تراه صعباً، إن لم يكن متعذراً. فقد استشهدت ستيت بدلويز (Deleuze) بشأن "مهانة التحدث عن الآخرين" (ص 6)، وأبدت موافقتها على جملة إدوارد سعيد بأن تقديم الآخرين "ينطوي دائماً تقريباً على عنف تجاه الموضوع المقدم" (ص 7). مع ذلك، فإن صور جين مور (Jean Mohr) للحياة الفلسطينية في كتاب سعيد *Under the Last Sky* ("تحت آخر سماء") تقدم على الأقل بصيص أمل، كما تقول ستيت، بأن "هناك إمكاناً للتغلب على المسافة والاختلاف وتقديم الآخرين بصورة جيدة – مثلما يرون أنفسهم" (ص 14). لكن، هل المرء محدود بتقديم الآخرين كما يرون أنفسهم فقط؟

إن مثل هذه الأسئلة يتجاوز نطاق الكتاب: فمشروع ستيت هو تحليل السّم لا وصف الترياق. وينجح كتاب "حُبّ وخناجر" في هدف تقديم تحليل للاستشراق في مجلة تعليمية شعبية واحدة على مدى قرن من الزمن، ويوفّر أيضاً دراسة حالة مفيدة بشأن كيفية تجنب التقديم. هذا الكتاب مهم للباحثين والمربين في العالم العربي وغيره، لمساعدتهم في التعرف إلى شراك يتجنبونها عند تقديم شعوب غير غريبة.

لورنس ميشالاك

عالم أنثروبولوجي

ونائب رئيس مركز

الدراسات الشرق الأوسطية في

جامعة كاليفورنيا، بيركلي

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx